اتصال الشعر بالعقيدة

عند دعبل بن علي الخزاعي

للدكتور/ أحمد عبد الوارث مرسي محمد*

دعبل : اسمه ونسبه(١) :

هو دعبل بن علي بن رزين بن عثمان بن بديل بن ورقاء الخزاعي – أسلم جده بديل ابن ورقاء بن عمرو بن ربيعة قبل الفتح ، وصحت صحبته ، وقد رُوى عنه أنه قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم – وقد رأى بعارضه سواداً – كم سنوك ؟ ، قال سبع وتسعون ، فقال : زادك الله جمالاً وسواداً (٢). واسمه محمد وكنيته أبو جعفر ، ودعبل (٣) لَقَبٌ لُقِّبَ به

---

* مدرس الأدب الإسلامي بقسم اللغة العربية بكلية الآداب بسوهاج .جامعة جنوب الوادي.

(١) اعتمدنا رواية الخطيب البغدادي . تاريخ بغداد ٨/ ٣٨٢ – المكتبة السلفية بالمدينة المنورة

= وابن عساكر تهذيب تاريخ دمشق الكبير ٥/٢٣٠ هذبه الشيخ عبد القادر بدران . دار المسيره – بيروت.

= وانظر الأغاني للأصفهاني ٢٠/١٢٠ طبع الهيئة المصرية العامة .

= وانظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٥٧٦ ط. ثانية ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥ . دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .

(٢) الإصابة في تميز الصحابة لابن حجر العسقلاني جـ ١ / ٢٧٦ . تحقيق محمد علي البجاوي . دار نهضة مصر

(٣) الدعبل : الناقة الشديدة ، وقيل الشارف . وفي الصحاح : اسم رجل من خزاعة ، وهو وصف يقال للناقة الشابة الفتية . (انظر) لسان العرب ٢/١٣٧٧.

بـه [١] فهو خزاعى أصلاً ونسبا ، أما عبد الله بن طاهر فقد ذكر أن دعبـلاً خزاعـى بـالولاء ، وجده مولى عبد الله بن خلف الخزاعى والد طلحة الطلحات [٢] .

وفى نظرى أن ذلك محض افتراء على الرجل ، وأن ذلـك ليـس إلا للحـط مـن شـأنه خاصة وأن طريقتهم فى الحط من أقدار الناس كانت بادعاء النسـب المدخول للمطعـون فيـه ، يؤيد ذلك عندى :-

* ما ذكره الحسين بن على للكلبى قال : إن دعبلاً قد قطعنا ، فلو أخبرت الناس أنـه ليس من خزاعة ، فقال : يـا فـاعل ! مثـل دعبـل تنفيـــه خزاعـة ! والله لـو كـان مـن غيرهـا لَـرَغِبَـتْ فيه حتى تدعيه ، دعبل والله ياأخى خزاعة كلها [٣] .

* أن المأمون سأل أبا دُلف : أى شىء تروى لأخى خزاعة بـا قاسم ؟ قال : أىّ أخـى خزاعة يا أمير المؤمنين ؟ قال : ومن تعرف فيهم شاعراً ؟ قال : أمـا مـن أنفسـهم فـأبو الشـيص ودعبل وابن أبى الشيص وداود بن أبى رُزين . وأما من مواليهم فطاهر وابنه عبد الله . فقال : ومن عسى فى هؤلاء أن يُسأل عن شعره سوى دعبل ! هات أى شىء عندك فيه [٤] .

النشأة والعقيدة :

نشأ دعبل فى الكوفة ، وهى يومئذٍ ذات طـابع علمـى وسياسـى مـميزين ، فأمـا مـن الناحية العلمية ، فإن مجالس العلم والأدب تعم أرجاءهـا وتنـير أركانهـــا ، وأضحـت المسـاجد زاخرة بالمناظرات العلمية والمجالس الأدبية والفقهية وغيرها من ألوان العلوم المختلفة .

---

(١) الأغانى ٢٠ / ١٢٣ .

(٢) انظر الأغانى ٢٠ /١٧٨ والبداية والنهاية ١٠ /٩٠٩ دار الغد العربى ط . أولى ١٤١٢هـ / ١٩٩١م.
- وانظر وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ٢ / ٣٧ . تحقيق محمد محى الدين عبـد الحميـد مكتبـة النهضـة المصرية .

(٣) نفس المصدر ٢٠ / ١٥٨ - ١٥٩ .

(٤) الأغانى ٢٠ / ١٥٢ .

وأما من الناحية السياسية فإنها مفعمة بالأفكار السياسية والحزبية والمنازعات والمخاصمات ، وها هى تضم فى أحضانها كل من لجأ إليها حتى أصحاب الميول المتطرفة فى الزندقة والمجون ، كما أنها ضمت بين جنباتها دعاة الثورة وحركات الإصلاح .

كما أن الكوفة كانت مرجع الشيعة ومستقرهم ، ومن ثم فإن الدعوة لآل البيت فى ذلك الوقت وجدت تربة مناسبة صالحة لاستشرائها فى أوصال تلك المدينة الخالدة ، وبقيت مدة من الزمن تأخذ طريقها وتمد جذورها إلى أن انقلبت لصالح العباسيين الأمر الذى جعل أصحاب هذه الدعوة يواجهون ألواناً من الاضطهاد من قِبَلهم وهذا شأن الشعب والحكام فى كل زمان ومكان ، فأما الضعاف من الناس فرجعوا إلى صوابهم – فى نظرهم – وانخرطوا فى سلك الحكومة الحالية وهى حكومة العباسيين ، وأما أصحاب المبادئ الثابتة المستقرة ، فلم يُثنهم بطش الحكومة لهم وظلمهم إياهم فى شىء ومضوا فى طريقهم الذى رسموه لأنفسهم . ويبدو أن العباسيين ساموا المتمردين سوء العذاب ، وأذاقوهم ألواناً من التنكيل والظلم فجاءت النتيجة على عكس ما يتوقعون إذ جعلهم هذا الظلم يتمسكون بمبادئهم أكثر وأكثر ، أوأن الإهانات التى وجهها العباسيون لآل البيت جعلت الناس تتعاطف معهم وتقف إلى جانبهم وتدعو بدعوتهم .

وأحسب – أن دعبلاً واحداً من هؤلاء الذين تعاطفوا تعاطفاً شديداً مع آل البيت ، ورأى ما آلوا إليه وشاهد بنفسه حجم الظلم الذى وقع عليهم ، فوقف بجانبهم وأحبهم حباً شديداً ، ودعا لهم كما سنعرف فيما بعد ، كما أنه استنكر على العباسيين أفعالهم وظلمهم وبطشهم ومحاولة إقناع الناس بدعوتهم بالقوة ومطاردة وتعذيب آل البيت فوقف ضدهم ، وبما أنه صاحب مبدأ لا يحول عنه – فهو رجل خزاعى – ويعرف للناس قدرهم ، فإنه لم يكترث بما يمكن أن يصيبه من العباسيين من بطش وظلم وتعذيب . يدل على ذلك قولته المشهورة (لى خمسون سنة أحمل خشبتى على كتفى أدور على من يصلبنى عليها فلا أجد من يفعل ذلك) [1] . هذا هو سبب تشيع دعبل وتمسكه بمبدئه وعقيدته إلى الحد الذى سوف نراه ونستخلصه من شعره فيما بعد .

---

(١) الأغانى : ٢٠ / ١٣١ .

ولكن أستاذنا الدكتور شوقى ضيف تشكك فى هذا التشيع واعتبره تشيعاً لغرض ونقل رأياً لأبى العلاء المعرى فى هذا الصدد وهو قوله : " إنه لم يكن صادقاً فى تشيعه ، وإنما كان يريد التكسب به " (١) . وعلق أستاذنا على ذلك بقوله : ولعله – يعنى أبا العلاء – محق فى تشككه لأن مثل دعبل المنطوى على كره الناس لا يمكن أن يُخلص لآل البيت ، إلا أن يكون وراء ذلك باعث يدفعه لأن يقول ما لايعتقده..

ويُعْزِى أستاذنا الدكتور شوقى ضيف هذا إلى الأموال (قم) التى أخذها ثمناً لدنانير أعطاها له الإمام على بن موسى الرضا أو أعطاها له المأمون وقد ضُربت باسم الإمام وثمن ثوب الرضا الذى أخذه أهل قم منه عنوة ولم يتركوا له إلا كُمَّا وأعطوه ثمنه ، يُعْزِى أستاذنا الدكتور شوقى ضيف تشيعه وحبه لآل البيت وبغضه العباسيين وهجاءهم إلى هذه الأسباب (٢).

كما أن أستاذنا يستدل على عدم صدق تشيعه بهجائه الكميت بن زيد شاعر آل البيت للعصر الأموى (٣) .

---

(١) قال المعرى فى هذا الصدد ما نصه : وما يلحقنى الشك فى أن دعبل بن على لم يكن له دين ، وكان يتظاهر بالتشيع ، وإنما غرضه التكسب ، ولا أرتاب فى أن دعبلاً كان على رأى الحكمى وطبقته والزندقة فيهم فاشية ، ومن ديارهم ناشية ، ويريد بالحكمى أبا نواس.

= رسالة الغفران : لأبى علاء المعرى . شرح كامل كيلانى . ط . ثانية ١٣٤٣ – ١٩٢٥ . المكتبة التجارية الكبرى .

= وقد أعجبنى ما رد به محقق ديوان دعبل عبد الصاحب الدجيلى على أبى العلاء إذ يقول : والمعرى يعرى دعبلاً عن الدين ويزعم أنه يتظاهر بالتشيع لغرض التكسب ، ولاأعلم حجة للمعرى فى ذلك إنما الذى أعلمه أنه من غير المعقول أبداً أن يتظاهر إنسان بالتشيع فى دولة تحارب التشيع فضلاً عن أنه يتخذه ذريعةً للتكسب . = وانظر مقدمة الديوان صـ ٦٩ .

وأنا أضيف على هذا أنه كان الأولى به والأجدر أن يتقرب إلى العباسيين فعندهم العطاء الجزيل .

(٢) انظر تاريخ الأدب العربى – العصر العباسى الأول . د / شوقى ضيف صـ ١٣١ الطبعة الحادية عشر دار المعارف سنة ١٩٩١م.

(٣) المصدر السابق صـ ٣٢٣ .

ولنا أن نستدل على صدق تشيع دعبل وحبه لآل البيت وعدم اكتراثه بأموالهم بما روى عنه أنه أعد تائيته المشهورة وقصد الإمام أبا الحسن على بن موسى الرضا فى خراسان بعد مبايعة المأمون له بولاية العهد وألقاها بين يديه ، وكان تأثيرها فى نفس الإمام بليغاً لدرجة أن بعض أبياتها أبكى الإمام حتى الإغماء ثلاث مرات ، ولما فرغ دعبل من إنشادها دخل الإمام الدار وبعث إلى دعبل مع الخادم بصرة فيها عشرة آلاف درهم من الدراهم المضروبة باسمه .... فقال دعبل : لا وا لله ما هذا أردت ولاله خرجت وإنما جئت للتشرف به والنظر إلى وجهه ورفض أخذها وطلب إلى الخادم أن يهب له الإمام ثوباً من ثيابه ، فأنفذ له الإمام جبة خز مع المبلغ وقال له : خذ هذه الصرة فإنك ستحتاج إليها ولاتراجعنى فيها [1] .

وقد قال دعبل فى آل البيت ..

لاأضحك الله سنَّ الدهرِ إنْ ضحكت

وآل أحمـــد مظلومون قد قُهِرُوا .

مشـرَّدون نُفـــوا عـن عُقْرِ دارهم

كأنهم قد جَنُوا ما ليس يُغْتفرُ . [2]

وهذا يدل على حب دعبل لآل البيت من غير أى غرضٍ من الأغراض الأخرى .

أما ما استدلَّ به أستاذنا الدكتور شوقى ضيف على عدم صدق تشيعه لهجائه الكميت ، ففى تصورى أن هذا ليس دليلاً على عدم صدق تشيع دعبل والذى دفع دعبلاً إلى ذلك شيئان لاثالث لهما : أولهمـــا نفســى ، فهو يريد أن يُعرف عنه أنه المدافع الوحيد عن آل البيت قديماً وحديثاً ، وثانيهما قَبَلى فهو – فى نظره – يدافع عن القحطانية فى مواجهة النزارية .

---

(١) أورد أبو فرج الأصفهانى هذه القصة وليس فيها رفض دعبل للمبلغ – الأغانى ٢٠ / ١٤٩ . وانظر مقدمة ديوان دعبل صـ ٦٠ .

(٢) ديـوان دعبل بن على الخزاعى – جمع وتحقيق عبد الصاحب عمران الدجيلى ١٨٦ . ط . ثانية ١٩٧٢م. دار الكتاب اللبنانى – بيروت .

والقصيدة على – أية حال – مناقضة وردٌ على الكميت أكثر منها هجاء [١].

أخلاقه وأثر العقيدة عليها :

ذكروا فى أخلاق دعبل بعض التصرفات التى تحط من شأنه وتنفيها الحقائق والأدلة العملية ، من ذلك ما ذكره أبو الفرج الأصفهانى عنه أن سبب خروجه من الكوفة أنه كان يتشطر ويصحب الشطار فخرج هو ورجل من أشجع فيما بين العشاء والعتمة فجلسا على طريق رجلٍ من الصيارفة وكان يروح كل ليلة بكيسه إلى منزله ، فلما طلع إليهما وثبا إليه فجرحاه ، وأخذا ما فى كمه ، فإذا هى ثلاث رمانات فى خِرقة ، ولم يكن كيسه ليلتئذٍ معه ، ومات الرجل مكانه ، واستتر دعبل وصاحبه وجدّ أولياؤه فى طلبهما وجدّ السلطان فى ذلك فطال على دعبل الاستتار ، فاضطر إلى أن هرب من الكوفة . فما دخلها حتى أن كتب إليه أن لم يبق من أولياء الرجل أحد [٢] .

كما أن أبا الفرج أورد عنه رواية أخرى عن أحمد بن أبى كامل قال : كان دعبل يخرج فيغيب سنين يدور الدنيا كلها ، ويرجع وقد أفاد وأثرى ، وكانت الشراة والصعاليك يلقونه فلا يؤذونه ويؤاكلونه ويشاربونه ويبرونه ، وكان إذا لقيهم وضع طعامه وشرابه ودعاهم إليه [٣].

هاتان روايتان تبيّنان إلى حد بعيد خطورة دعبل على المجتمع ، فمن الرواية الأولى يتبين أنه من قطاع الطرق ، وأنه يسلب وينهب بل ويقتل من يظن أن معه أموالاً كما حدث مع الصيرفى . والرواية الثانية تؤكد أنه يصادق الشراة والصعاليك ويؤاكلهم ويسير على شاكلتهم . وفى نظرى أن هاتين الروايتين فيهما نظر شديد ، لأنه ثبت أن دعبلاً ولى ولايتين

---

(١) راجع الأغانى ٢٠ / ١٢٠ ، ١٢٣

(٢) الأغانى ٢٠ / ١٢٤ .

(٣) المصدر نفسه ٢٠ / ١٣٦

إحداهما فى المشرق والأخرى فى مصر ، فأما الأولى فإنه وَلِيَ على سمنجان [١] للعباس بن جعفر الخزاعى الذى كان والياً على خراسان من سنة ١٧٣ - ١٧٥ هـ . أو أنه وليها لابنه الفضل بن العباس الذى كان والياً على طخارستان ، وكان دعبل قد أدب الفضل وخرجه .

فإذا علمنا أن دعبلاً قد ولد سنة ١٤٨ لعرفت أنه ولى هذه الولاية وعمره ما بين الخامسة إلى السادسة والعشرين . فهو فى مقتبل العمر .

وأما الولاية الثانية فإنه وليها على أسوان للمطلب بن عبد الله الخزاعى الوالى من قِبَل العباسيين على مصر ، وكان ذلك بعد أدائه وأخيه فريضة الحج ، فقصداه إلى مصر ومدحه دعبل بقصيدة جاء فيها [٢] :

رحلْتُ عنسى إلى البيت الحرام على ... ما كان من وصب فيها ومن نصب
حتى إذا ما قضت نُسكى ثنيت لها ... عطفَ الزّمام فأمّت سيد العرب
فيممتْكَ وقد ذابت مفاصلها ... من طول ما تعب لاقت ومن نصب
إنى استجرت ياستارين مستلماً ... ركنين : مطلباً والبيتَ ذا الحجُبِ
فذاك للآجل المأمول ألمسَه ... وأنت للعاجل المرجو والطلبِ

واستقبله المطلب خير استقبالٍ وولاه على أسوان [٣].

وفى أبيات دعبل مايدل على أنه يحذر الآخرة ويخاف ربه ، وفى أدائه لفريضة الحج ما يدل على تديّنه وليس على صعلكته ، ثم فى ولايته سمنجان بالمشرق وأسوان بمصر ما يدل على أنه رجل وقور عاقل رزين وتلك هى أهم شروط الولاية ولايُعْقَلُ أن يكون صعلوكاً ويأتمنه الولاةُ على ولاياتهم.

---

(١) (سِمِنْجان) بكسرالأول والثانى وتسكين الثالث ، بلدة من طخارستان وراء بلخ وبغلان وبها شعاب كثيرة ، وبها طائفة من عرب تميم ، ٢٥٢/٣معجم البلدان- لياقوت الحموى . دار الكتاب العربى . بيروت - لبنان .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ٣٧/٢

(٣) راجع الأغانى ١٥٩/٢٠ - ١٦٠ .

على أنى أتصور أن شدة حبه لآل البيت ومدحهم من ناحية ، وبغضه الشديد للعباسيين وهجائهم ، وهجاء خلفائهم على وجه الخصوص من ناحية أخرى جعل الرواة والوضّاعين يضعون عليه مثل هذه الأمور للحط من شأنه إرضاءً للخلفاء والأمراء من بنى العباس ، كما كان لمن يكرهون آل البيت حتى من غير العباسيين دور كبير فى هذا الأمر .

أما ما قيل عن دعبل من أنه كان يكره الناس جميعاً ويهجوهم يستوى فى ذلك من أحسن إليه ومن أساء ، إن صح هذا الزعم فإن له مندوحة فى ذلك وهى أنه عاشق لآل البيت ومخلص لهم ، وكانت أشعاره وأعماله كلها تؤيد ذلك ، وسوف نرى أن شعره ارتبط بهذه العقيدة التى ظل مخلصاً لها طول حياته على الرغم من اضطراب العقائد ، وتأرجح الأفكار فى ذلك الوقت ، وهو يرىما حل بآل البيت من نكبات وكوارث وما يقع على كواهلهم من ظلم وتنكيل ، وقد تألبت عليهم الأحزاب من كل مكان وهم لايملكون لأنفسهم حولاً ولاطولاً ، وهاهم بنو العباس يقبضون على الأمور بيد من حديد ، ويبسطون وجوههم و أيديهم أمام مؤيديهم ، ويشهرون سيوفهم فى وجوه المعارضين ، وهاهم الناس من حولهم يخافون على أنفسهم وأهليهم وأموالهم فيسيرون مع التيار السياسى لاضده ويكرهون – ولو نفاقاً – ما يكره بنو العباس ، ويحبون من أحبوهم حتى أصبح الناس – فى نظر دعبل – لارأى لها ولاوزن فصغر الجميع فى نظره وهاهو يوضح فلسفته فى علاقته بالناس بما رواه أبو الفرج أن أبا خالد الخزاعى الأسلمى قال لدعبل مرة : ويحك ! لقد هجوت الخلفاء والوزراء والقواد ووترت الناس جميعاً ، فأنت دهرك كله شريد طريد هارب خائف، فلو كففت عن هذا وصرفت هذا الشر عن نفسك ! فقال : ويحك ! إنى تأملت ما تقول ، فوجدت أكثر الناس لاينتفع بهم إلا على الرهبة ولايبالى بالشاعر وإن كان مجيداً إذا لم يخف شره ، ولمن يتقيك على عرضه أكثر ممن يرغب إليك فى تشريفه ، وعيوب الناس أكثر من محاسنهم وليس كل من شرفته شرف ولا كل من وصفته بالجود والمجد والشجاعة ولم يكن ذلك فيه انتفع بقولك ، فإذا رآك قد أوجعت عرض غيره وفضحته – اتقاك على نفسه وخاف من مثل ما جرى على الآخر [1] ..

(١) الأغانى ٢٠ /١٢٥ . وقد ذكر ذلك ابن خلكان فى معجم الأدباء ١١ / ١٠٢ . مراجعة وزارة المعارف الطبعة الأخيرة

وقد ثبت من شعر دعبل أنه رجل مطبوع على علو النفس وبعد الهمة وحبه للبذل والعطاء والذكر الطيب . وهو مطبوع على حب الضيوف والاحتفاء بهم شيمة كل عربى أصيل فهو القائل فى الكرم ..

لم يطيقوا أن يسمعوا وسمعنا وصبرنا على رَحَى الأسنان
صوت مضغ الضيوف أحسن عندى من غناء القيان بالعيدان[1].

كما قال فى حب الضيوف ..

ا لله يعلم أننى ماسرنى شىء كطارقة الضيوف النزّل
مازلت بالترحيب حتى خلتنى ضيفاً له والضيف ربّ المنزل[2]

وكان حرباً على البخل والبخلاء ، وفى ديوانه أكثر من موضع ذمهم فيه وألقى عليهم اللائمة فى مثل قوله [3] :

إن هذا الفتى يصون رغيفاً ما به لناظر من سبيل
هو فى سفرتين من أدم الطا ئف فى سلتين فى منديل
ختمت كل سلة بحد يد وسيور قُدِدْنَ من جلد فيل
فى جراب فى جوف تابوت موسى والمفاتيح عند إسرافيل

شاعريته وأثر العقيدة فيها :

أجمعت جُلّ المصادر التى بين أيدينا [4] على أن دعبلاً شاعر متقدم مطبوع ، يغوص فى المعانى الدقيقة ، ومع أنه تلميذ مسلم بن الوليد إلا أن البحترى عدّه أشعر من مسلم وعلل

---

(١) الديوان صـ ٢٩٨ جمع عبد الصاحب عمران الدجيلى . ط. ثانية ١٩٧٢ . دار الكتاب اللبنانى – بيروت .

(٢) الديوان ص ٢٥٦ .

(٣) الديوان ٢٦٨ – ٢٦٩ .

(٤) مثل : أ – الأغانى ٢٠ /١٢٠ ب – معجم الأدباء ١١ / ١٠١
جـ – تهذيب تاريخ دمشق ٥ /٢٣٠ .

ذلك بقوله : لأن كلام دعبل أدخل فى كلام العرب من مسلم [١] وهو أحد اثنين خُتم بهما الشعر وفى رواية خُتم الشعر بدعبل[٢].

وفى شعر دعبل صور حية ناطقة بما كان يحس به من آلام ونكبات ، وتصوير للأدوار التى عاشها والأحداث التى شاهدها ، فكان شعره مرآة تنعكس عليها الصور لتعبر عن مشاعر المجتمع وأحاسيسه وخلجاته ، حتى إن الغرض الفرعى فى القصيدة لم يكن وعاءً من غير إحساس كما رأينا فى معظم القصائد السابقة ، وإنما كان مفعماً بالأحاسيس ، ملينا بالمشاعر على نحو مانرى فى بكاء الأطلال فى قصيدته (مدارس آيات) التى تصور حال آل البيت وما آلو إليه فيقول :

بكيت لرسم الدار من عرفات ... وأذريت دمع العين بالعبرات
وفك عرى صبرى وهاجت صبابتى ... رسوم ديار أقفرت وعرات
مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحى مقفر العُرصات
لآل رسول الله بالخيف من منى ... وبالركن والتعريف والجمرات
ديار على والحسين وجعفر ... وحمزة والسجَّادِ ذى الثَّفنات

إلى أن يقول :

ديار عفاها جور كل منابذ ... ولم تعف للأيام والسنواتِ[٣]

كلام يصدق الحكم عليه بأنه شعر ، فما الشعر إلا كلام موزون يفيض شعوراً وإحساساً وتصويراً للواقع ، وما نحسب هذا الإحساس الصادق والمشاعر الجياشة إلا مما أملته عليه عقيدته وحبه لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا الإحساس الصادق جعل أعداءه وأعداء آل البيت يعجبون بشعره ويرددونه وينصفونه بسببه على نحو ما قال عنه المأمون : لله دره ما أغوصه وأنصفه وأوصفه [٤] بل وكان يطلب من جلسائه أن يقولوا شيئاً

(١) الأغانى ٢٠ / ١٣٦
(٢) نفسه ٢٠ / ١٢٣ .
(٣) الديوان ١٣١ - ١٣٢ .
(٤) تهذيب تاريخ دمشق ٥ /٢٣٢ .

من شعره على نحو ما كان بينه وبين أبي دُلف – كما سبق [١] – كما أن المأمون سأل عبد الله بن طاهر : أى شيء تحفظ لدعبل ؟ فقال : أحفظ أبياتاً له فى أهل بيت أمير المؤمنين ، قال : هاتها ويحك ، فأنشده عبد الله قول دعبل :

سقياً ورعياً لأيام الصبابات أيام أرفلُ فى أيام لذّاتى
أيام غصنى رطيب من ليانته أصبو إلى غير جارات وكنّات
دع عنك ذكر زمان فات مطلبه واقذف برجلك عن متن الجهالات
واقصد بكل مديح أنت قائله نحو الهداة بنى بيت الكرامات[٢]

ولقد كان دعبل جريئاً فى شعره ، صارماً قوياً ، لايخاف أحداً ممن يهجوهم ، ولايطلب عطاءً ممن يمدحهم لأن هجاءه – غالباً – كان فى خدمة عقيدته ، ومدحه كذلك ، ولقد استخدم الشعر سلاحاً يحقق به أغراضه ، وسيفاً مصلتاً على رقاب أعدائه انطلاقاً من عقيدته ، لايهمه أحد إلا أحباؤه آل البيت الذين احتج لهم وطالب بحقهم المقدس ، هذا الحق الذى تنكّر له بنو العباس واغتصبوه ، مما جعل شعر دعبل يفيض قوة و حيوية ، لايكف عن ذلك ولايتوقف ، حتى رُوى عن الجاحظ أنه قال : سمعتُ دعبلَ بن على يقول : مكثتُ ستين سنة ليس من يوم ذَرّ شارقُهُ إلا وأنا أقول شعراً [٣] وهذا ما يشير إلى أنه شاعر مكثر مجيد فى وقت واحد حتى قالوا عنه إنه (كان شاعر علماء وعالم شعراء) [٤] .

وكان دعبل يرى أن للقديم حرمة ، وأن الجديد لايدانيه أيا كان ، وربما كان قول البحترى فيه " إن كلامه أدخل فى كلام العرب من كلام مسلم " منطلقاً من ذلك .

كما وقع فى بعض شعره البديع ، لكنه غير متكلف كما هو الشأن عند أستاذه مسلم بن الوليد الذى عرف بالصناعة الشعرية . مصداق ذلك قوله :

لاتعجبى يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

---

(١) راجع الأغانى ٢٠ / ١٥٢ .

(٢) نفس المصدر – ٢٠ / ١٥٢ – ١٥٣ .

(٣) الأغانى ٢٠ / ١٥١ .

(٤) مقدمة الديوان صـ ٥٣ نقلاً عن رسائل الانتقاد لابن شرف القيروانى ضمن رسائل البلغاء صـ ٢٤٩ .

فانظر إلى استعارة (ضحك المشيب) والطباق فى قوله (ضحك وبكى) وكلها فى شطر واحد من بيت . وجاءت طبيعية غير متكلفة .

وقوله فى الهجاء :

أرى منـــا قريـــب بيـــت زَوْر وزَوْرٌ لايـــــزور ولايُـــــزار
ولايُهـدِى ولايُـهـــدَى إليـــه وليس كذاك فى العرب الجـــوارُ [١]

وفى شعر دعبل معان سامية تدل على علو نفسه وبُعْد همته وحبه للبذل ، وقد ذكرنا بعض أبيات فى حبه للضيوف وذمه للبخل والبخلاء وذلك فى أخلاقه .

وله أيضاً :

إذا نبح الأضياف كلبى تصببت ينابيع من ماء السرور على قلبى
فألقاهم بالبشر والبر والقِرى ويقدمهم نحوى يبشرنى كلبى [٢]

ولدعبل بعض الأبيات التى اشتهر بها وافتخر كقوله :

لاتعجبى يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

وهو من قصيدة يقول فيها :

أيـن الشباب وآيـة سـلكا لا ، أين يطلب ؟ ضلّ بل هلكا
لاتعجبى يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى
قد كان يضحك فى شبيبته وأتى المشيب فقلما ضحكا [٣]

ومما يذكر أن هذه الأبيات كانت السبب المباشر فى اتصال دعبل بالرشيد [٤] لما كان لها من أثر فى نفسه ، وكانت السبب المباشر – أيضا – فى سطوع نجم الشاعر وظهور اسمه وحتى هو نفسه لم يُخْفِ إعجابه الشديد بهذه الأبيات وكان يقول أنا ابن قولى ..

---

(١) الديوان صـ ٢٤٩ .
(٢) نفس المصدر ١١٦ .
(٣) نفسه صـ ١٨٨ .
(٤) راجع الأغانى ٢٠/ ١٧٩.

لا تعجبى يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى [١]

الأغراض الشعرية عند دعبل واتصالها بالعقيدة

أولاً : الهجاء :-

ليس الهجاء هو الغرض المقدم فى الشعر العربى منذ العصر الجاهلى ، ولكنى بدأت به فى هذا الموضوع - بالذات - لأنه عند دعبل هو الغرض الذى استخدمه سلاح هجوم ودفاع فى نصرة آل البيت والدفاع عنهم وإثبات حقهم الذى يراه مهضوماً ولقد كان هذا الغرض هو السائد - تقريبا - فى الديوان بما يشير إلى أن هذا اللون من الشعر هو الذى سيطر على أحاسيسه وكيانه حتى إن الشاعر كان أحيانا ما يضع شعراً فى الهجاء ليس لأحد ، إلى أن يصادفه من يستحقه فيكون له ، فقد أورد صاحب الأغانى رواية عن أحمد بن أبى كامل قال : كان دعبل ينشدنى كثيراً هجاءً قاله ، فأقول له : فيمن قلت هذا ؟ فيقول : ما استحقه أحد بعينه بعد ، وليس له صاحب , فإذا وَجد على رجل جعل ذلك الشعر فيه ، وذكر اسمه فى الشعر [٢].

وربما هجا دعبل واحداً بلا جناية أو خطأ ارتكبه لما لهذا الغرض من أثر قوى عنده كما حدث مع فزارة العكلى ، فقد أورد صاحب الأغانى أن دعبلاً هجا ابن أبى داود لأنه كان يطعن عليه ، وجاء فى هجائه له :-

ولو سكتّ ولم تخطب إلى عرب

لما نبشت الذى تطويه من سببك

عُدّ البيوت التى ترضى بخطبتها

تجد فزارةَ العكلى من عربك

---

(١) نفس المصدر ٢٠ / ١٢٥

(٢) الأغانى ٢٠ / ١٢٩

فلقيه فزارة العكلى ، فقال له : يا أبا على ، ماحملك على ذكرى حتى فضحتنى ، وأنا صديقك ؟ قال : يا أخى وا لله ما اعتمدتك بمكروه[1] ولكن كذا جاء فى الشعر لبلاء صبه الله عز وجل فىّ عليك لم أعتمدك به.

ومما جعل للهجاء تلك المكانة فى نفس دعبل ما طبع عليه من جرأة وصدق العزم وشجاعة ، كما كان مؤمنا بمبدئه مخلصاً له ، لا يحيد عنه أيا كانت الأحداث من حوله ، وكان حبه الشديد لآل البيت إلى جانب ما اتصف به من صفات سبق ذكرها هما العامل الأساسى فى كون الهجاء يأخذ هذه المكانه حتى إن أبا الفرج الأصفهانى وهو – فيما نظن – أقدم من ذكر دعبلاً قال عنه (هجّاء ، خبيث اللسان ، لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا وزرائهم ولا ذو نباهة ، أحسن إليه أو لم يحسن .. [2]

ولأبى الفرج ولغيره أن يقولوا عنه ما شاءوا فإن ذلك لم يكن منه بلا سبب أو مبرر ، ولكن وكما ذكرنا قبل ذلك – كانت عقيدته قوية بحب آل البيت – فهو يرى ما آلو إليه وما يحدث معهم ، وها هى قوى الشر كلها تتضافر عليهم مما جعل قلبه يمتلئ عطفا عليهم وحباً لهم وغيظاً وبغضاً على أعدائهم بل وعلى الناس أجمعين

لقد سأله سائل ذات مرة فقال له ما الوحشة عندك ؟ قال : النظر إلى الناس ثم قال:–

ما أكثر الناس لا بل ما أقلهم ... الله يعلم أنى لم أقل فندا[3]
إنى لأفتح عينى حين أفتحها ... على الكثير ولكن لا أرى أحدا

لقد ضاق الشاعر ذرعاً بالناس على وجه العموم وببنى العباسى وخلفائهم ووزرائهم ومن يؤيدونهم على وجه الخصوص ، فأعلن مناهضته لسياستهم ، وأعلن مساعدته ومساندته للمشردين المعذبين من آل بيت النبوة.

---

(١) راجع هذا الخبر فى الأغانى ٢٠ / ١٣٤ – ١٣٥

(٢) المصدر السابق ٢٠/١٢٠

(٣) الديوان ص ١٧٢– ١٧٣

وهذا ما يجعلنا نقف على سبب هجائه اللاذع فى كل أحواله ، لأنه لم يُبق على أحد ، ولا يرجو خيراً من أحداً فهجاؤه أشبه بالشتائم إن لم يضمنه خيالاً أو نكته ، وكان يجرح خصمه جرحاً مؤلماً حتى إنك إذا استعرضت شعره فى الهجاء لوجدت أن كل كلمة فيه – تقريبا – تصيب مقتلاً .

فهو القائل فى هجاء المطلب بن عبد الله الخزاعى :

تُعلق مصرُ بك المخزيات

وتبصق فى وجهك الموصل[1]

لقد أوغر قلوب الناس ضده حتى عاش طريداً يتنقل من بلد إلى بلد .

ولقد كان هجاؤه اللاذع سبباً فى أن يتبرأ بنو مخزوم من شاعرهم ، كما قال أبو ناجية : حضرت بنى مخزوم ببغداد ، وقد اجتمعوا على أبى سعد لما لجّ الهجاء بينه وبين دعبل ، وقد خافوا لسان دعبل ، وأن يقطعهم ويهجوهم هجاء يعمهم جميعاً ، فكتبوا عليه كتاباً وأشهدوا أنه ليس منهم[2] ...

لقد كان الشاعر يتمتع بجرأة غير مسبوقة بأمثاله من الشعراء هى فى نظرى – التى جعلت هجاءه يتسم بهذا الطابع ، فما كان يخشى حتى الخلفاء فى هجائهم ، ولقد أورد أبو الفرج الأصفهانى ما دار بينه وبين ابن المدبرّ قال : لقيت دعبل بن على ، فقلت له : أنت أجسر الناس عندى وأقدمهم حيث تقول

إنى من القوم الذين سيوفهم

قتلت أخاك وشرفتك بمقعد

(١) الأغانى ٢٠/ ١٦٠

(٢) المصدر السابق ٢٠/١٧٢

رفعوا محلك بعد طول خموله

واستنقذوك من الحضيض الأوهـــد[١]

فقال : يا أبا اسحق أنا أحمل خشبتى ...وذكر عبارته المشهورة . والأبيات فى هجاء الخليفة المأمون .

وهذه الأبيات تدل على فخر دعبل على ما سنرى فيما بعد .

ومما يلفت النظر فى هذا أن المأمون لم يكن يرى بأساً فى هجاء دعبل له ، وكان يحتمل كل ما يصدر منه ويعفو عنه ولايقابل من يستعدى عليه إلا بالإعراض أو الضحك يظهر ذلك فيما ورد عن إبراهيم المهدى أنه دخل على المأمون يستعديه على دعبل ويطلب أن يعاقبه لهجائه له ، فقال له المأمون وما قال ؟ لعل قوله : (نعر ابن شكلة بالعراق وأهله) . فقال هذه من بعض هجائه ، وقد هجانى بأقبح من هذا فقال المأمون : لك أسوة بى فقد هجانى واحتملته وقال فىّ :

أيسومنى المأمون خطة جاهل أو ما رأى بالأمس رأس محمد

إنى من القوم ..... وذكر البيتين السابقين .

فقال إبراهيم : زادك الله حلماً يا أمير المؤمنين وعلماً[٢] .

وهو يشير فى قوله :

إنى من القوم الذين سيوفهم قتلت أخاك وشرفتك بمقعد .

إلى أن طاهر بن الحسين قائد المأمون وقاتل أخيه الأمين من موالى خزاعة قبيلة دعبل وسوف نرى ذلك بوضوح فى هجاء المأمون بعد قليل .

---

(١) نفسه ١٣١/٢٠

(٢) وفيات الأعيان ٣٥/٢

ولقد عاصر دعبل خمس خلفاء عباسيين وهجاهم أجمعين لحبه الشديد لآل البيت النبوى وهم :

١- هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ)

٢- عبد الله المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ)

٣- محمد المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ)

٤- الواثق (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ)

٥- جعفر المتوكل (٢٣٢- ٢٤٧هـ)

ومما تجدر الإشارة إليه - أيضا- أن دعبل انتقل إلى بغداد أيام الرشيد وتوارى عن المعتصم خائفاً أكثر أيام خلافته لهجائه اللاذع له كما سنعرف وهجا - لعقيدته أيضا - إبراهيم المهدى العباسى الذى بويع بالخلافة والمأمون فى خراسان .

كما هجا - أيضا - فيمن هجاه - القاضيين ، أحمد بن أبى دواد ويحيى بن أكتم ، والقائدين طاهر بن الحسين والعلى بن أيوب ، والوزيرين أحمد بن أبى خالد وأبا عباد ، ومن الولاة ابن عمه المطلب بن عبد الله الخزاعى والى مصر وغيرهم .....

أما أهاجيه الأخرى فكانت اعتياديه ، وقد جاءت عفو الخاطر ، أو للدعابة كما ذكرت من قبل ، أو كانت فى مقابلة من تعرض له ، أو اعتدى عليه ، ولقد كان الدافع لكل هذه الأهاجى وقتيا حسبما يمليه ظرفه ، وسوف لا نتناول شيئاً منها وسنقصر الحديث على هجائه الذى كان بسبب العقيدة .

هجاؤه الرشيد :

هو هارون الرشيد ولى الخلافة من سنة ١٧٠ هـ حتى سنة ١٩٣هـ ، وله على دعبل أيادٍ لا تعد ولقد غنى بعض المغنيين فى حضرته ذات مرة

أين الشباب وآية سلكا　　لا، أين يطلب ؟ ضل بل هلكا

فطرب الرشيد وسأل عن ناظمها فأُخبر به ، فأمر بإحضاره وأرسل إليه بعشرة آلاف درهم وخلعة من الثياب ، وسار دعبل إليه ، وأنشده بعض شعره فاستحسنه وأجرى عليه رزقاً سنيا [١].

لكن دعبل لم يأبه لكل هذا ، وليس هو ممن يغريهم بريق المادة ، ولا رضا الخلفاء ، بل هو مخلص لعقيدته ، مشفق على آل البيت بما يحدث لهم،حزين على ما يفعله العباسيون معهم وعلى رأسهم الخليفة ، فما أن سمع بموت على الرضا بطوس سنه ٢٠٣هـ وهو فى طريقه مع المأمون إلى بغداد وقد دفن بها بجانب قبر الرشيد إلا وقال قصيدة[٢] طويلة يذكر فيها الرضا ويهجو الرشيد ومنها :

وليس حى من الأحياء نعلمه　　من ذى يمان ومن بكر ومن مضر
إلا وهم شركاء فى دمائهم　　كما تشارَك أيسار على جزر
قتل وأسرو تحريق ومنهبة　　فعل الغزاة بأرض الروم والخزر
أرى أمية معذورين إن قتلوا　　ولا أرى لبنى العباسى من عذر
أربِع بطوس على القبر الذكى إذا　　ما كنت تربع من دين على وطر
قبران فى طوس خير الناس كلهم　　وقبر شرهم هذا من العبر
ما ينفع الرجس من قرب الزكى ولا　　على الزكى بقرب الرجس من ضرر
هيهات كل امرئ رهن بما كسبت　　له يداه فخذما شئت أوفذر

لقد ألقى الشاعر اللوم على كل القبائل العربية فى تعذيب وتشريد آل البيت ، إما بالفعل أو السكوت ، واستعرض تعذيب آل البيت منذ عصر بنى أمية ، وأشار إلى أفعالهم وموقفهم من آل البيت ، وإذا كان الشاعر يلتمس عذراً ما لبنى أمية بسبب الحروب المعروفة بين على ومعاوية ، إلا أنه لا يلتمس عذراً لمن كانت قرابتهم بهم أشد وأوثق وهم العباسيون .

---

(١) الأغانى ٢٠/١٨٠ .

(٢) فى الديوان ص ١٩٥ .

ويأتى البديع فى هذه الأبيات طبيعيا غير مقصود لذاته ولا متكلفا يتمثل ذلك فى الطباق بين لفظى الرجس .. والزكى فالرجس من النجاسة وزكى من الطهور والنقاء وهو يشير بالأولى إلى الرشيد وبالثانية إلى على بن موسى الرضا من آل البيت .

ثم فى تقديم وتأخير اللفظين ، ففى الشطر الأول من البيت الذى ورد به اللفظان قدّم الرجس الذى يرمز به إلى هارون الرشيد لأنه هو المعنىّ بالهجاء ، وأخّر (الزكى) لدلالة بُعده عنه ، وفى الشطر الثانى بدأ باللفظ (الزكى) ويقصد به علّى بن موسى وأخّرَ الرجس لما به من ضرر لا يلحق بالطهارة .

هذه الأبيات إنما تدل دلالة واضحة على إخلاص دعبل لقضيته وعقيدته لا على عدم وفائه كما يحلو للكثير [1] أن يقول ، ولو كان الشاعر من طالبى الدنيا وزخرفها والتقرب من الخلفاء والوزراء لظل يمدحهم ويثنى عليهم ويقول فيهم – نفاقاً – ما ليس فيهم . لكنه – ولإخلاصه لعقيدته – كان إلى جانب الثلة الضعيفة المهزومة المغلوبة على أمرها وهى لاتملك ما تعطيه لمادحيها . على أن دعبل لم يهج الرشيد فى حياته وإنما هجاه بعد موته ، والميت لا يضار من مدح المادحين ولا ينتفع بقدحهم ، وفى تصورى أن دعبلاً كان يقصد بهجائه الموجودين من خلفاء بنى العباس .

---

(١) انظر تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر فقد قالوا عنه إنه هجّاء خبيث اللسان لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا من الوزراء ولا من أولادهم ولا ذو بناهة أحسن إليه أو لم يحسن ٢٣٦/٥ ومعجم الأدباء لياقوت ١٠٢/١١ .

هجاء المأمون [١]:-

ولا نعلم خليفة من خلفاء بنى العباس من الذين هجاهم دعبل لم ير بأساً أو حرجاً من هجائه كالمأمون ، وقد روى - فى ذلك - صاحب الأغانى عن على بن يزيد قال : كان أبو سعد المخزومى يستعلى على دعبل فى أول أمره ، وكان يدخل إلى المأمون فينشده هجاء دعبل له وللخلفاء ويحرّضه عليه وينشده جوابه ، فلم يجد عند المأمون ما أراده فيه ، وكان يقول : الحق فى يدك والباطل فى غيرك ، والقول لك ممكن فأما القتل فإنى لست أستعمله فيمن عظم ذنبه ، أفأستعمله فى شاعر [٢]..

ويبدو أن أبا سعد المخزومى كانت فى نفسه أشياء كثيرة من دعبل الذى كان يشنُّ عليه حملة هجاء واسعة بحيث أفضت إلى مهاترة تجاوزت حدود الأدب والأعراف ، وسببها أن أبا سعد كان يشايع النزاريين عرب الشمال ويحط من شأن القحطانيين عرب الجنوب الذين ينتمى إليهم دعبل ، ومن أجل ذلك فإنه كان يكرر محاولاته عند المأمون للحط من شأن دعبل والنيل منه حتى إنه حدث عن نفسه فقال : أنشدت المأمون قصيدتى الدالية التى رددت فيها على دعبل فى قوله :

ويسومنى المأمون خطة عاجز ... أوما رأى بالأمس رأس محمـــد

وأول قصيدتى :

أخذ المشيب من الشباب الأغيد ... والنائبات من الأنام بمرصـــد

---

(١) هو أبو العباس عبد الله بن هارون الرشيد وأمه مراجل ، بويع بالخلافة فى ٢٦ محرم سنه ١٩٨ ، حارب أخاه محمد بن زبيدة واستمرت خلافته ٢١ سنة وكان على جانب وافر من الدهاء والسياسة ، كما كان عالماً وأديباً وشاعراً ، أخذ بآراء المعتزلة ونشرها ويعتبر عصره من ألمع عصور خلفاء الدولة العباسيه

= انظر فى ترجمة المأمون تاريخ بغداد ١٠/١٨٣

= تاريخ اليعقوبى ٢/٤٤٤

= مروج الذهب للمسعودى ٣/٤١٦ . دار الاندلس .

(٢) - الأغانى ٢٠/١٧٢- ١٧٣

ثم قلت · يا أمير المؤمنين ، إئذن لى أن أجيئك برأسه . قال : لا ، هذا رجل فخر علينا فافخر عليه ، كما فخر علينا ، فأما قتلـــه بلا حجة فلا [١].

بل إن المأمـــون – وعلى الرغم من هجاء دعبل لبنـى العباس كان يطلبـــه (وهو هائم على وجهه خوفاً من بطشهم والتنكيل به) وقد وصل إلى سمع المأمون هذه الأبيات التى قالها دعبل فى إبراهيم وقد جاء فيها :

إن كان إبراهيم مضطلعاً بها

فلتصلحن من بعده لمخُـــارق

فلما قرأها المأمون ضحك ، وقال : قد صفحت عن كل ما هجانا به إذ قرن إبراهيم بمخارق فى الخلافة وولاه عهده [٢] .

ودس أبو سعد المخزومى فى قصيدة لدعبل بيتا لم يقله ليوغر صدر المأمون عليه ولم يفلح وهو قوله :

من أى ثنيّة طلعت قريش وكانوا معشراً متنبطينا [٣]

المأمون – إذن – هو الرجل العالم ، صاحب القلب الكبير الذى لم يأخذ دعبلاً بهجائه ، لأنه يلتمس له العذر ، فهو يعلم – تماماً – أنه محب لآل البيت وهو صريح فى حبه لهم ، كما أن المأمون ليحترم دعبلاً ، فهو ليس كغيره من الشعراء او الذيـن يتوددون للحكام ويعيشـون تحت أقدامهم طلبا لعطائهم ، وإلى اليوم يوجد هذا النوع من النـاس الذين يحترمون من يعتزون بأنفسهم ، ولا يريقون ماء وجوههم على أعتاب الحكام .

---

(١) الأغانى ٢٠/١٧٤ .

(٢) الأغانى ٢٠/١٨٠– ١٨١ .

(٣) الأغانى ٢٠/١٦٨ .

من أجل ذلك كله فإن ديوان دعبل لم يحفل كثيراً بهجاء المأمون خلا هذه القصيدة التى تُعد من فخر دعبل والتى ذكرّ المأمون فيها بأن قاتل الأمين من موالى خزاعة -كما مر - وقد بدأ القصيدة بقوله :

أيسومنى المأمون خطة جاهل ... أوما رأى بالأمس رأس محمد

نوفى على هام الخلائق مثلما ... تُوفى الجبال على رءوس القَرْدَد

ومنها :-

إن التَراث مشهد طلابها ... فاكفف لعابك عن لعاب الأسود

إنى من القوم الذين سيوفهم ... قتلت أخاك وشرفتك بمقعد

شادوا بذكرك بعد طول خموله ... واستنقذوك من الحضيض الأوهد[1]

الفخر - هنا - وذكر الأحساب والأنساب واضح ، وتذكير المأمون بفضل خزاعة عليه يتضح أكثر من الهجاء ، فقوم الشاعر من أعالى القبائل ، كما أن الجبال أعلى مواضع الأرض ، وهم سم زعاف كسم الثعابين على أعدائهم ...

الشاعر إذن لم يهج المأمون ، بل على العكس من ذلك فقد مدحه لما رد الخليفة فدك للعلويين كما سيأتى فى المدح .

هجاء المعتصم [2] :

لا نعلم أحداً من خلفاء بنى العباس نال منه دعبل بقدر ما نال من المعتصم ، ولقد كان هجاؤه له شديداً جداً ، وقد تجاوز فيه حدود اللياقة والأدب ، لشدة غضبة عليه وحنقه .

---

(١) الديوان ١٧٥- ١٧٦ .

(٢) هو أبو اسحق محمد بن هارون الرشيد وأمة أم ولد تسمى ماردة ، ويعرف بالثامن لترتيبه بين خلفاء بنى عباس ، بويع بالخلافة بعد أخيه المأمون ٢١٨هـ ، قرَّب الاتراك ، وكان حاجبه تركيا يسمى (وصيف) وأغدق عليهم الأموال ومكنهم من الدولة ، وكان ذا بأس شديد ، توفى سنة ٢٢٧ .

= راجع فى ذلك تاريخ اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر) ٤٧١/٢ دار صادر - بيروت ومروج الذهب ٤٥٩/٣ .

ويبدو أن قسوة الخليفة وشدته وصرامته على الناس عامة وعلى آل البيت خاصة كانت سبباً من الأسباب التى جعلت دعبلاً يقسو عليه فى الهجاء ، وكان لتقديمه الأتراك وتمكينهم من الدولة هوالسبب المباشر – فى نظرنا – لهجوم دعبل على الخليفة بهذه الشراسة والضراوة . ويبدو أن المعتصم كان يكره دعبلاً كراهية شديدة ، لطول لسانه وهجائه اللاذع للخلفاء وغيرهم ، وقد بلغ الشاعر أن الخليفة يريد قتله فهرب إلى الجبل وقال فى هجائه هذه القصيدة [١]

بكى لشتات الدين مكتئب صب ... وفاض بفرط الدمع من عينه غرب
وقام إمام لم يكن ذا هداية ... فليس له دين وليس له لُبّ
وما كانت الأنباء تأتى لمثله ... يملك يوماً ، أوتدين له العرب
ملوك بنى العباس فى الكتب سبعة ... ولم تأتنا عن ثامن لهم الكتب
كذلك أهل الكهف فى الكهف سبعة ... كرام إذا عُدّوا وثامنهم كلب

فقد أسند الشاعر إلى المعتصم كل ما أصاب المسلمين من الشتات والتفرق ، حتى إن العيون لتدمع لما حل بالمسلمين من تولى هذا الخليفة أمرهم، فهو أمام ليس على جانب من الهداية إذ لا دين له ولا عقل . وقد تأثر الشاعر بقول الله تعالى : " سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ....." [٢] الآية التى تحكى قصة أصحاب الكهف فشبه بهم خلفاء بنى العباس الذين سبقوا المعتصم ، وهو الثامن الذى يقابل الكلب عند أهل الكهف .

ولم يكتف دعبل بتشبيه المعتصم بالكلب فى قصيدته ، بل إنه جعل الكلب يعلو شأنا عنه : إذ يقول :

وإنى لأُعلى كلبهم عنك رفعة ... لأنك ذو ذنب وليس له ذنب

واستمر فى هجائه له بقوله :

---

(١) راجع الأغانى ٢٠/١٤٤ .

(٢) سورة الكهف الآية ٢٢ .

كأنك إذْ ملّكتنا لشقائنا عجوز عليها التاج والعقد والإتب [١]

ومن ثم فإن الشاعر فرح بموت المعتصم ولم ينتظر خيراً ممن جاء بعده وهو الواثق فقال :

الحمد لله لاصبر ولاجلد ولا عزاء إذا أهل البلا رقدوا
خليفة مات لم يحزن له أحد وآخر قام لم يفرح به أحد
فمر هذا ومر الشؤم يتبعه وقام هذا فقام الويل والنكد [٢]

فالأمور عنده تستوى ، ولا فرق بين هذا وذاك من خلفاء بنى العباس ، فالكل على إيذاء آل البيت النبوى مجتمعون .

وهو يتوقع سوء المصير للمعتصم إذ يعتبره شراً كله فى سلوكه فى حياته ولأجل بيعة الواثق من بعده فيقول :

قد قلت إذ غيبوه وانصرفوا فى شر قبر لشر مدفون
اذهب إلى النار والعذاب فما خلتك إلا من الشياطين
ما زلت حتى عقدت بيعة من أضر بالمسلمين والدين

لقد بلغ الهجاء ذروته للمعتصم والواثق معاً ، فهو يعتبر الأول من الشياطين فيستحق بذلك سوء العذاب وبئس المصير ويعلل لذلك فى البيت الأخير بقوله : (ما زلت) أى ما زلت بيننا لا تقيم العدل فى حياتك حتى عقدت البيعة قبيل وفاتك لمن أضر بالمسلمين وبالدين. ولا نوافق دعبلاً على ما يتمناه لأى من المسلمين بعد موته ، وإنما نذكرهم بالخير وندعو لهم بالرحمة والمغفرة أيا كان .

وأما فى هجاء أبى جعفر المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧هـ) آخر الخلفاء العباسيين الذين هجاهم دعبل فلم يُرو له إلا بيت واحد فقط كما ذكر صاحب الأغانى عن محمد بن جرير قال : أنشدنى عبيد الله بن يعقوب هذا البيت وحده لدعبل يهجو به المتوكل ، وما سمعت له غيره فيه :

---

(١) وانظر الديوان ص ١٠٢ .

(٢) نفس المصدر ١٦٨ وانظر الأغانى ١٤٦/٢٠

ولست بقائل قذعاً ولكن لأمر ما تعبّدك العبيد [١]

ويبدو أنه فى خلافة المتوكل كان دعبل قد بلغ من الكبر عتيا ومن العمر أرذله وها هو يقترب من الدار الآخرة ، فلا يريد أن يؤذى أحداً بقوله ، فكان هذا البيت فقط فى هجاء المتوكل .

أما موقفه من إبراهيم بن المهدى[٢] ، فإنه يبدأ منذ أن بويع بالخلافة فأثار ذلك حفيظة دعبل حتى سخر بالخلافة ومن يتولاها مثل إبراهيم بن المهدى المغنى والموسيقار المعروف ، وكان غريبا أن تهبط الخلافة إلى هذا الدرك ، وتهوى فى هذه الهوة فيتولاها رجل من زمرة الفاسقين حتى هجاه دعبل بهذه القصيدة :

علم وتحكيم وشَيْبُ مفارق ظَلْسن ريعان الشباب الرائق
وإمارة فى دولة ميمونة كانت على اللذات أشغب عائق
فالآن لا أغدو ولست برائح فى كبر معشوق وذِلّة عاشق
نعرابنُ شكلة بالعراق وأهله فهفا إليه كل أطلس مائق
إن كان إبراهيم مضطلعاً بها فلتصلُحَنْ من بعده لُخارق
ولتصلحن من بعد ذاك لزلزل ولتصلحن من بعده للمارق[٣]
أنى يكون وليس ذاك بكائن يرث الخلافة فاسق عن فاسق

فهو يقول إن إبراهيم صاح فى أهل العراق لإعطائه البيعه ، وذلك ليوغر صدر المأمون ضده ويبين أن إبراهيم لا يصلح لهذا الأمر العظيم وإلا لصلح له مخارق وزلزل والمارق وهى شخصيات مهملة فى الحضيض .

وفى هذه الأبيات من روعة التعبير ودقة التصوير ما لا يفوت ذى لب ، إذ يرثى فيها لحال الخلافة والمرتقين إليها، والأشباه والنظائر للخليفة الجديد .

---

(١) الأغانى ١٤٦/٢٠

(٢) إبراهيم بن المهدى العباسى أخو الرشيد وعم المأمون وأمّه (شكلة) كان يلقب بالتّين لأنه كان أسودا عظيم الجثة . انظر فى ترجمته : وفيات الآعيان لابن خلكا ٧٩/١ ومابعدها مراجعه وزارة المعارف . ط أخيرة . عيسى الحلبى .

(٣) الديوان ص ٢٤٤.

وحدث أن قل المال فى خلافة إبراهيم بن المهدى فأخّ عليه الأجناد وغيرهم لما احتبس عنهم العطاء وخرج إليهم رسوله يقول : إنه لا مال عنده، فقال قوم من أهل بغداد : أخرجوا إلينا خليفتنا ليغنى لأهل هذا الجانب ثلاثة أصوات ولأهل هذا الجانب ثلاثة أصوات فتكون عطاء لهم فأنشد دعبل فى هذا الظروف القصيدة التالية :-

يا معشر الأجناد لا تقنطوا ... وارضوا بما كان ولا تسخطوا
فسوف تعطون حنينيّةً ... يلتذها الأمرد والأشمط
والمعبديات لقوادكم ... لا تدخل الكيس ولا تربط
وهكذا يرزق أصحابه ... خليفة مصحفه البربط
قد ختم الصك بأرزاقكم ... وصحح العزم فلم تغمطوا
بيعة إبراهيم مشؤومة ... تقتل فيها الخلق أو تقحط [1]

وهو يصل فى هذه القصيدة إلى قمة السخرية من إبراهيم بن المهدى فيبين الحالة التى آلت إليها الخلافة من الفقر حتى إن الأجناد ليكتفون بسماع الغناء من خليفتهم الماجن ولا يتقاضون رواتبهم ، ثم ينهى القصيدة بشؤم بيعة إبراهيم وبيان أحوال الناس السيئة فى خلافته .

المدح والوصف فى شعر دعبل وارتباطهما بالعقيدة

لقد كان لدعبل فلسفة خاصة فى المدح حيث كان يرى أن مكانة الشاعر وكيانه لا يبنى بالمدح ، وتقبيل الأيدى ، ومداراة هذه المجموعات المختلفة المنحرفة ، بل إنه كان يبنى كيانه بين الناس ومنزلته برهبتهم كما يقول هو عن نفسه فهو القائل لأبى خالد الخزاعى الأسلمى :- .... إنى تأملت ما تقول ، فوجدت أكثر الناس لا يُنتفع بهم إلا على الرهبة ، ولا يُبالى بالشاعر – وإن كان مجيداً – اذا لم يخف شره وَلَنْ يتقيك على عرضه أكثر ممن يرغب إليك فى تشريفه ." [2]

---

(١) القصيدة بالديوان ص ٢١٨/ ٢١٩ وانظر فى خبرها الأغانى ٢٠/١٥٠

(٢) الأغانى ٢٠/١٢٥

الشاعر – إذن – لا يريد أن يمدح أحداً ، فلا يوجد من يستحق منه ذلك ، ولا يوجد – أيضا – فى نظره – من يستحق التذلل والوقف على الأعتاب إلا أحباؤه من آل البيت الذين يمثلون لب العقيدة عنده .

إنه يحبهم حباً ينبع من حبه الأكبر لله رب العالمين ، فهم ينتمون إلى رسوله الكريم وهم أَوْلى الناس بالخلافة وأحقهم بالحكومة والرياسة .

من أجل ذلك كله فإن الشاعر خصهم بكل مَدْحِه ، وخص أعداءهم بكل مَدحه وهجائه ، ومثلما صعب على الأعداء هجاءً لاذعاً مراً، فإنه خص آل البيت جميعاً بأروع ما قيل فى المدح ، وبأصدق ما قيل فى الوصف ، فجاء شعره فى هذا الصدد مرآه صادقة تعكس صدق مشاعر الرجل وتنم عن عقيدة قوية وإيمان راسخ بالله وبرسوله الكريم وآل بيت الطيبين الطاهرين .

لقد قال فى مدح آل البيت :-

طرقتك طارقة المنى ببيات ... لا تظهرى جزعاً فأنت بدات
فى حب آل المصطفى ووصيِّه ... شغل عن اللذات والقينات
إن النشيد بحب آل محمد ... أزكى وأنفع لى من القينات
فاحشُ القصيد بهم وفرِّغ فيهم ... قلبا حشوت هواه باللذات
واقطع حبالة من يريد سواهم ... فى حبه تحلل بدار نجاة [1]

ونحن نرى أن الشاعر فى هذه الأبيات يذوب حباً ويفيض حنانا بآل بيت رسول الله، وهو يفضل حبهم عن كل شىء عنده ، ومن ثم فإنه يرى قطع سواهم من الناس أجمعين أيا كانت درجاتهم الدنيوية ، فإن ذلك هو النجاة فى الآخرة .

وهو يذكرهم جميعاً بأسمائهم فى أشعارهم ويخص كل واحد منهم بمدح وكأنه يستمع بذكرهم والثناء عليهم سواء من كان على قيد الحياة منهم أو لم يكن . وهذا ما يجعلنا نستطيع الردَّ به على من يقول إن دعبلا كان يقول الشعر ليتكسب به ، أو لينال به مكانة أو منزلة ،

---

(١) الديوان ١٤٦

فإذا عرفنا أنه خص من لحقوا بربهم من آل البيت بمدح وهجا من هو على قيد الحياة ممن بيدهم النيْل والعطاء ، فأى كلام يفلح بعد ذلك فى هذا الشأن .

لقد خص الشاعر سيدنا على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، وكرم الله وجهه بأوصاف ومدح كثيرين باعتباره الولى الأول ومن سلالته كان بقيتهم ، ثم الحسين بن على من بعده وهكذا حتى وصل إلى على الرضا بن موسى الكاظم رضى الله عنهم أجمعين .

فقال فى سيدنا على :

سقيا لبيعة أحمد ووصيه ... أعنى الإمام ولينا المحسودا

أعنى الذى نصر النبى محمداً ... قبل البرية ناشئا ووليدا

أعنى الذى كشف الكروب ولم يكن ... فى الحرب عند لقائها رعديدا

أعنى الموحد قبل كل موحد ... لا عابداً وثناً ولا جلمودا

وهو المقيم على فراش محمد ... حتى وفاه كائداً ومكيدا

وهو المقدم عند حومات الوغى ... ما ليس ينكر طارقا وتليدا[1]

وفى هذه الأبيات تتجلى عبقرية الشاعر فى بيان ما كان عليه سيدنا على من أوصاف وخصائص ؛ فقد نصر النبى ، وكان بطلاً فى الحروب ، كما أنه لم يسجد لصنم قط ، وهذه إشارة إلى أنه أسلم وهو صغير ، وما كان منه ليلة الهجرة .

كما أنه خص الإمام بأوصاف طيبة طاهرة هو أهل لها فقال عنه :

(١) نفسه ١٧٢ .

ألا إنـــه طهـــر زكـــى مطهـــر ... ســـريع إلى الخـــيرات والبركـــات
غلامـاً وكهـلاً خـير كهـل ويـافع ... وأبســـطهم كفـــا إلى الكربـــات
وأشـجعهم قلبـا وأصدقهـم أخـاً ... وأعظمهـم فـى المجـد والقربـات
أخـو المصطفـى بـل صهـره ووصيـه ... مـن القـوم ، والسـتار للعـورات
كهارون من موسى على رغم معشر ... سـفال لئـام شـقق البشـرات
فقال : ألا مـن كنـت مـولاه منكـم ... فهـذا لـه مـولى بُعيـد وفـاتى
أخـى ووصيـى وابن عمى ووارثـى ... وقـاضى ديـونى من جميع عداتى [1]

وفى هذه الأبيات يركز الشاعر على أحقية الإمام على بالخلافة ، وبالتالى أحقية آل البيت يتوارثونها من بعده ، ويستند فى ذلك إلى أسانيد كثيرة من السنة النبوية المطهرة كقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لعلى _ فيما رواه البخارى ومسلم " : أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى .. " [2]

أما مَن مدح الشاعر من خلفاء بنى العباس ، فلم يكن ذلك إلا للمأمون لا رغبة فى عطاء منه ولا ليحوز منزلة وقربا ، ولكن كان مدحه لهذا الخليفة بسبب أنه أرجع لآل البيت حقين من حقوقهم ، وإن كان هذا الرد تشوبه شائبة إلا أن ظاهر الأمر على الخير وحسن النية وكان أول هذين الحقين هو رد الخليفة لقرية (فدك) إلى العلويين [3] . فأنشد الشاعر فيه هذا البيت مادحاً :

أصبح وجه الزمان قد ضحكا ... برد مأمون هاشـــم فدكا

---

(١) الديوان ١٤٧ / ١٤٨

(٢) انظر صحيح البخارى ٢٢/٥ طبع دار الشعب .
وصحيح مسلم ١٧٤/١٥ طبع الريان

(٣) فدك : قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان ، فيها عين فوراة ونخل كثير أفاءها الله على الرسول فأعطى نصفها لفاطمة ومنها ابو بكر من ذلك لأن الأنبياء لا تورث وأقطعها عثمان لمروان بن الحكم ,اعادها عمر بن العزيز لآل البيت مرة أخرى ثم انتزعت منهم إلى أن ردها المأمون إليهم – انظر معجم البلدان ٢٣٨/٤

هو بيت واحد ليس غيره ، ولا يمدح فيه إلا هذا الرد وكفى ، ولو كان يريد عطاء لأكثرَ من القول .

وأما الأمر الثانى الذى مدح الشاعر فيه المأمون فهو توليته على الرضا بن موسى الكاظم العهد من بعده . وقد أعد دعبل فى هذه المناسبة قصيدة طويلة هى تائيته المشهورة ، والتى تُعدُ وِساماً يشهد لدعبل بحبه لآل البيت ووصف حالهم وما آلو إليه .

لقد أعد دعبل هذه القصيدة يدفعه شعور قوى بالحزن والأسى بما أصاب آل البيت من نكبات وحل بهم من كوارث ، ويقال إن الإمام على الرضا الذى ألقى الشاعر هذه القصيدة بين يديه بعد مبايعة المأمون له بولاية العهد بكى مما جاء فيها ثلاث مرات حتى الإغماء وأعطى الشاعر عشرة آلاف درهم وثوب على نحو ما سبق ذكره [١]

واشتهرت هذه القصيدة شهرة فائقه بين الأدباء والمؤرخين ، لأنها تعد بحق من أشهر قصائد دعبل لما فيها من مشاعر وأحاسيس صادقة ويكفى لصدق مشاعر هذه القصيدة أن يدهش الخليفة المأمون لها ويعجب ببراعة الشاعر لما جاء فيها من معان وأفكار فتتوق نفسه إلى سماعها من دعبل نفسه، وما زالت تتردد فى صدر المأمون حتى قدم عليه فقال له : أنشدنى قصيدتك التائية ، ولا بأس عليك ولك الأمان من كل شئ فيها ، فإنى أعرفها وقد رويتها إلا أنى أحب أن أسمعها من فيك .. فأنشدها ، والمأمون يبكى حتى أَخْضَلَ لحيته بدمعه .[٢]

وقد بدأ القصيدة على هذا النحو :

تجاوبن بالإرنان والزفرات ... نوائح عجم اللفظ والنطقات
يخبرّن بالأنفاس عن سر أنفس ... أسارى هوىً ماض وآخر آت
فأسعدن أو أسعفن حتى تقوضت ... صفوف الدجى بالفجر منهزمات[٣]

---

(١) راجع فى ذلك الأغانى ٢٠ / ١٤٨ .

(٢) تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٥/٢٣٧

(٣) الديوان ١٢٤ - ١٢٥

ألم ولوعة وحسرة ، وبكاء ونحيب ، وإحساس صادق ، وصُوَر جميلة معبرة ، وقد رسمها الفنان بالصوت فى الزفرات – نوائح – نطقات ، وباللون فى الدجى ، والفجر ، وصورة (منهزمات) التى تنم على العوْد والرجوع القهقرى .....

ثم يمضى الشاعر فى قصيدته ، ليبين جور الأيام وقسوة الحكام على آل البيت النبوى الشريف الكرام فيقول :-

ألم تر للأيام ماجر جورها ... على الناس من نقص وطول شتات
ومن دول المستهترين ومن غدا ... بهم طالباً للنور فى الظلمات
فكيف ؟ ومن أنى يطالب زلفة ... إلى الله بعد الصوم والصلوات
سوى حب أبناء النبى ورهطه ... وبغض بنى الزرقاء والعبلات
وهند وما أدت سمية وابنها ... أولو الكفر فى الإسلام والفجرات[1]

وفى هذه الأبيات تتجلى الصنعة فى شعر دعبل ، لكنها الصنعة غير المتكلفة والتى جاءت عفو الخاطر وذلك فى جر ، جور وكذلك الطباق فى النور والظلمات ، وحب وبغض والترادف بين كلمتى : الكفر والفجرات .كما أنه يبين الظلم الذى وقع على آل البيت فى شتى العصور ، وقد أشار إلى بنى أمية بـ (هند) أم معاوية بن أبى سفيان التى تعرف بأكلة الأكباد لأنها لاكت كبد حمزة ابن عبد المطلب ، وسمية أم زياد بن أبيه .

ويمضى الشاعر فى هذه القصيدة الرائعة ، فيبين أحقية على فى الخلافة ، وبم استحق هذه الولاية فيقول :

أخا خاتم الرسل المصفّى من القذى ... ومفترس الأبطال فى الغمرات
فإن جحدوا كان الغدير شهيده ... وبدرٍ وأحد شامخ الهضبات
وآى من القرآن تتلى بفضله ... وإيثاره بالقوت فى اللزبات
مَناقبَ لم تدرك بكيد ولم تنل ... بشىء سوى حد القنا الذّربات
نجى لجبريل الأمين وأنتمُ ... عكوف على العزى معاً ومناة[2]

(١) الديوان ١٢٦

(٢) نفس المصدر ١٢٩.

وهنا يصل الشاعر إلى قمة ما يريد أن يصل إليه من بيان فضائل الإمام ، والغدير [١] هو الذى خطب النبى صلى ا لله علية وسلم فيه وهو عائد من مكة ، وأعلن البيعة والمولاة للإمام على فقال : " من كنت مولاه فهذا على مولاه اللهم والِ من والاه وعاد من عاداه [٢] كما بين أن الإمام قد نزل بفضله قرآن ، وهذه مناقب لم تكن لغيره ، ثم يصل إلى قمة التعبير للجانب الآخر بالبيت الأخير من هذه المجموعة .

وأشرك الطبيعة من حوله ، وأشهدها على أحقية آل البيت فى الخلافة مثل الغدير وبدر وأحد ، وكأنه يريد أن يقول إن الكون كله حتى الجماد يشهد بما لآل البيت من حق وفضل .

ويذكر – فى هذه القصيدة – الحسين ، وما حل به ، ويذكر موقعة كربلاء فيقول :

فأما الممضّات التى لست بالغاً ... مبالغها منى بكنه صفات
نفوس لدى النهرين من أرض كربلا ... معرسهم فيها بشط فرات
تُوفّوا عطاشا بالفرات فليتنى ... توفيت فيهم قبل حين وفاتى

وتبلغ الحسرة والألم مبلغها على آل البيت الكرام عند الشاعر فى هذه القصيدة فى قوله :

ألم تر أنى من ثلاثين حجة ... أروح وأغدو دائم الحسرات
أرى فيئهم فى غيرهم متقسما ... وأيديهم من فيئهم صفرات
بنات زياد فى القصور منيعة ... وآل رسول ا لله فى القلوات

الرثاء واتصاله بالعقيدة فى شعر دعبل

من المعروف أن الرثاء فن شعرى قديم ، وكان الشاعر يذكر مآثر الميت ومحاسنه ، ولم يقتصر على رثاء الأفراد فحسب ولكن تعداه إلى رثاء الممالك والأمم

---

(١) راجع = معجم البلدان ٣٨٩/٢
= الاستيعاب لابن عبد البر ٦٣/٣

(٢) راجع حديث الغدير فى أعيان الشيعة للإمام السيد محسن الأمين تحقيق حسن الأمين المجلد الأول ص ٤٢٠ طبع دار التعاريف . بيروت ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦ م.

والأماكن ، فالأسود بن يعفر يرثى دولة آل محرق فى الحيرة ، وما شادوا من قصور كالخورنق والسدير ، وأبو العباس المكى بكى دولة الأمويين التى قضى عليها العباسيون ، والبحترى رثى إيوان كسرى حين زار أطلاله ورأى النقوش والتصاوير على حيطانه ، وبكى دولة الفرس ومجدها الحضارى [١] .

ولقد كان دافع هؤلاء جميعاً شعور بالأسى والحزن على ما أصاب هذه الأماكن والحضارات من اندثار ، ومن ثم فإن مراثيهم جاءت معبرة عما يجيش فى خلجانهم .

ونحسب أن دعبلاً بن على الخزاعى كان له هذا اللون من الرثاء ، علاوة على رثاء الأشخاص ، يدفعه فى ذلك أسى ولوعة وحزن عميق ترك فى نفسه أثراً بالغاً على ما أصاب آل البيت من نكبات وكوارث .

ولقد بكى الحسين بن على بكاءً حاراً ونعاه بعد استشهاده بمثل هذه الأبيات :

رأس ابن بنت محمد ووصيّه ... يا للرجال على قناة يُرْفَع
والمسلمون بمنظر وبمسمع ... لا جازع من ذا ولا متخشع
أيقظت أجفانا وكنت لها كرى ... وأنمت عينا لم تكن بك تهجع
كحلت بمنظرك العيون عماية ... وأصم نعيك كل أذن تسمع
ما روضة إلا تمنت أنها ... لك مضجع ولحط قبرك موضع [٢]

وحتى حينما يرثى ابنا له لا يلبث بعد قليل من أبيات يذكره فيها إلا أن يذكر أصحابه وأحبابه من آل البيت فيضم رثاءهم إلى رثاء ابنه بل ويقدم رثاء الإمام على الرضا ويذكر مادُسّ له من سم أفضى به إلى الموت فيقول :

على الكره ما فارقت أحمد وانطوى ... عليه بناء جندل ورزين
وأسكنته بيتا خسيساً متاعه ... وانى على رغمى به - لضنين
هو النفس إلا أن آل محمد ... لهم دون نفسى فى الفؤاد كمين

ثم يذكر من تتابعوا على آل البيت بالعداء والحروب فيقول :

---

(١) راجع فى ذلك تاريخ الأدب العربى - عصر الدول والإمارات - الأندلس - د. شوقى حنيف ص ٣٣٨.

(٢) الديوان ص ٢٢٥

أضرّ بهم إرث النبى فاصبحوا يساهم فيهم ميتة ومنون
دعتهم ذئاب من أمية وانتحت عليهم دراكاً أزمة وسنون
وعاثت بنو العباس فى الدين عيثة تحكم فيهم ظالم وظنين

ثم يذكر قبر الرضا بطوس ويشير إلى ماسقيه من سم فيقول :

ألا أيها القبر الغريب محلّهُ بطوس عليك السارياتُ هتون[1]
شككت فما أدرى أمسقىّ شربةٍ فأبكيت أم ريب الردى فيهون

وأما النوع الثانى من الرثاء وهو رثاء الأماكن فقد برع دعبل فيه براعة فائقة يدفعه – أيضا – حزن على من كانوا يسكنون تلك الأماكن ولوعة وأسى على ما حل بهم فيقول فى تائيته الشهيرة :

بكيت لرسم الدار من عرفات وأذريت دمع العين بالعبرات
وفك غُرَى صبرى وهاجت صبابتى رسوم ديار أقفرت وعرات
مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات
لآل رسول الله باالخيف من منى وبالركن والتعريف والجمرات

وتنتابه رعشة ورعدة فيبكى لما كانت عليه هذه الديار وما حل بها فيقول:

منازل كانت للصلاة وللتقى وللصوم والتطهير والحسنات
منازل وحى الله معدن علمه سبيل رشاد واضح الطُرقات
ديار عفاها جور كل منابذ ولم تعف للأيام والسنوات

فهل هذه الكلمات مصطنعة ؟ وهل كل هذه المشاعر الصادقة التى تمتلئ بها الأبيات من أجل نيل أو عطاء ؟ وإذا كانت مقفرة فممن يرجو الشاعر نيلاً .

وهكذا نحس بالصدق والإخلاص وخلو مشاعر دعبل من كل زيف ونحسب أن شعره صقلته عقيدته ، فلولا حبه الصادق لآل البيت وبغضه الحقيقى لأعدائهم لما رأينا شعر دعبل بهذه القوة وتلك المشاعر الصادقة ومن ثم فإننا نستطيع القول بكل صدق إن شعر دعبل كان له اتصال وثيق بعقيدته .

والحمد لله أولا وآخراً

(١) المصدر السابق ص ٢٨٨ وما بعدها .

المصادر والمراجع

١- الإستيعاب فى أسماء الأصحاب - لابن عبد البر - على هامش الإصابة دار الكتاب العربى .

٢- الإصابة فى تمييز الصحابة - لابن حجر العسقلانى - ٢٧٦/١ تحقيق محمد على البجاوى دار نهضة مصر .

٣- أعيان الشيعة - للامام السيد محسن الأمين - تحقيق حسن الأمين . دار التعارف. بيروت.

٤- الأغانى - لأبى الفرج الأصفهانى - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . الهيئة العامة .

٥- البداية والنهاية - لابن كثير - دار الغد العربى .

٦- البيان والتبيين - للجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون الخانجى - ط.خامسة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥ .

٧- تاريخ الأدب العربى (عصر الدول والإمارات) - د/شوقى ضيف - دار المعارف ١٩٨٩ .

٨- تاريخ الأدب العربى - العصر العباسى الأول - د/شوقى ضيف - دار المعارف ط./١١ ١٩٩١ .

٩- تاريخ بغداد - للحافظ أبى بكر بن على الخطيب - المكتبة السلفية - المدينة المنورة.

١٠- تاريخ الطبرى (تاريخ الرسل والملوك) - لمحمد بن جرير الطبرى - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - ط. رابعة . دار المعارف ١٩٧٩ .

١١- تاريخ اليعقوبى - لأحمد بن أبى يعقوب - دار صادر بيروت .

١٢- تهذيب تاريخ دمشق الكبير - لابن عساكر - هذبه الشيخ عبد القادر بدران - دار المسيرة - بيروت .

١٣- ديوان دعبل بن على الخزاعى - جمع وتحقيق . عبد الصاحب عمران الدجيلى - دار الكتاب اللبنانى ط . ثانية ١٩٧٢ .

١٤- الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة - لابن بسام - تحقيق إحسان عباس - دار الثقافة . بيروت . لبنان .

١٥- رسائل الجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون - الخانجى .

١٦- رسالة الغفران - لأبى العلاء المعرى - شرح كامل كيلانى - المكتبة التجارية الكبرى ط. ثانية ١٣٤٣ - ١٩٢٥ .

١٧- الشعر والشعراء - لابن قتيبة - تحقيق مفيد قميحة - دار الكتب العلمية . بيروت . ط . ثانية ١٩٨٥٤م .

١٨- صحيح البخارى - لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى - دار الشعب.

١٩- صحيح مسلم بشرح النووى - للإمام مسلم - دار الريان للتراث - ط . ثانية ١٩٨٥م .

٢٠- لسان العرب - لامنظور - دار المعارف ١٩٧٩

٢١- لسان الميزان - لابن حجر العسقلانى - مؤسسة الأعلمى - بيروت . لبنان. ط . ثانية ١٩٩٧١م - ١٣٩٠هـ .

٢٢- مروج الذهب - للمسعودى - دار الأندلس .

٢٣- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص - لعبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد العباسى.

٢٤- معجم الأدباء - لياقوت الحموى (لابن عبد الله ياقوت بن عبد الله) - مراجعة وزارة المعارف - طبعة أخيرة .

٢٥- معجم البلدان - لياقوت الحموى (أبى عبد الله ياقوت بن عبد الله) - دار إحياء التراث - بيروت لبنان .

٢٦- معجم الشعراء - للمرزبانى (أبى عبد الله محمد بن عمران) - تعليق د.ف كرنكو . دار الجيل - بيروت - لبنان ط. أولى ١٤١١ - ١٩٧٨ .

٢٧- نقد الشعر - قدامة بن جعفر - تحقيق محمد عبد المنعم خفاجى - مكتبة الكليات الأزهرية - ط . أولى ١٣٩٨ - ١٩٧٨ .

٢٨- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - لابن خلكان - مكتبة النهضة العربية - ط.أولى ١٣٦٧ - ١٩٤٨ .

****